

الفصل الثاني إِعْجَازُ الْقُرْآنِ

العناية بدراسة القرآن العظيم :

لم يحدث في تاريخ البشرية أن أمة من الأمم اعتنت بكتابها السماوي كما اعتنت هذه الأمة المحمدية، ولم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية. والإجلال والإكبار. كما ناله هذا الكتاب المجيد، معجزة محمد الخالدة، وحججه البالغة، ودعوته إلى الناس أجمعين. ولا عجب أن ينال القرآن العظيم هذه المنزلة الرفيعة، ويحتل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة، ذلك لأن الأحداث التي رافقت نزول هذا الكتاب المقدس، تجعله ينبؤ مكان الصدارة بين جميع الكتب السماوية، ويفوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من هداية وإصلاح وتربية وتعليم، وسمو وتشريع، ولقد أحسن وأبدع من قال :

(الله أكبر إن دين محمد وكتابه أهدى وأقوم قبلاً)
(لا تذكروا الكتب السالف عنده طلع الصباح فأطفيء القديلاً)

القرآن معجزة محمد الخالدة :

وقد جرت حكمة الله الأزلية، أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات. والحجج والبراهين الدامغة، التي تدل على صدقهم، وعلى أنهم

أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير، وقد خصّ الله تبارك وتعالى نبينا ﷺ بالمعجزة العظامي (القرآن الكريم) ذلك النور الرباني، والوحي السباوي، الذي ألقاه على قلب نبيه قرآناً عربياً غير ذي عوج، يتلوه آتاء الليل وأطراف النهار، والذي أحيا به أجيالاً من العدم، كانت في عداد الموتى فأحياها الله بنور هذا القرآن، وهذاها أقوم طريق وانتشلها من الخضيض فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث يقول: ﴿أَوْفَىٰ كَانَ فَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

لقد أحيا القرآن أمتاً، وأوجد مجتمعات، وآلف جيلاً لم يعرف له التاريخ مثيلاً، فأخرج من العرب الذين كانوا رعاة الإبل والغنم، سادة الشعوب والأمم، فملكهم الدنيا حتى حكموا أقاصي المعمورة وكل ذلك بفضل هذا القرآن، معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين. وفي ذلك يقول أمير الشعراء:

(أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له وأنت أحيت أجيالاً من العدم)

ولئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات «حية» تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه، كمعجزة (موسى) عليه السلام حيث كانت (اليد والعصا) لأنه بعث في زمن كثير فيه السحرة واشتهر فيه السحر، وكذلك معجزة (عيسى) عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتى، وإبراء الأكمنة^(٢) والأبرص، والإخبار عن بعض المغيبات، لأنه بعث في عصر كثير فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسى بن مريم بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتى، وإبراء العمي البكم الصم.

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات (مادية حية) فإن معجزة محمد بن عبد الله معجزة (روحية عقلية) وقد خصّه الله بالقرآن معجزة العقل الباقي

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) الأكمنة: الأعشى. قال تعالى: ﴿وَأَبْرِيَ الْأَكْمَنَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

على الزمان، ليراها ذوو القلوب والبصائر، فيستنبطوا بضيائها وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين أنه قال:..

« ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » رواء البخاري ..

أجل .. هذا الوحي السماوي الذي ألقاه الله على قلب نبيه الأمين ليكون ضياء ورحمة للعالمين، هو معجزة الإسلام الخالدة، وحجته الباقية، تقوم على فم الدنيا شاهدة بصدق الرسول، ناطقة بعظمة الإسلام وخلود هذا الدين، بينما ذهبت المعجزات الحسية، ومضت مع أحداثها الكونية، وتلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام الذين أتوا بها، فلم يعد لها وجود وبيان إلا في هذا القرآن الذي أخبر عنها، فكان له الفضل الأعظم عليها سابقاً ولاحقاً، والله مر القائل حيث يقول:

(جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئنا بكتاب غير منصرم)
(آياته كلها طال المدى جدد يزنيهن جمال العنق والقدم)

الآيات: المراد بها المعجزات جمع آية بمعنى المعجزة. انصرمت: أي ذهبت بذهابهم ..

قال العلامة الزرقاني: (وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يميت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو قائم على فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان. ومن هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات نبي الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أركى الصلاة وأتم التسليم، فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي منمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، ومات بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا في خبر كان، ولا يسلم شاهد له بها إلا هذا

القرآن؟ وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل، وما صح من الأديان كافة، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ (١) الآية. وقال عز اسمه: ﴿أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحدٍ من رسله﴾ (٢) الآية..

لهذا لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حية. تفرع الحسن وتستولي على النفوس، فلم تكن عصا تنقلب حبة كعصا موسى، أو ناراً تصبح برداً وسلاماً كالنار التي ألقى فيها الخليل، أو ناقة تخرج من صخر أصم ولها رغاء كناقاة صالح، أو مريضاً يشفى، أو أعمى يبرأ كما فعل عيسى عليه السلام، وإنما كانت معجزة، عقلية خالدة، لأنها خاتمة الرسالات، فهي خالدة خلود الدهر، باقية بقاء الإنسان..

يقول الشيخ (محمد البنا) ما نصه: وإذا كان قد جرت خوارق للعادات على يد النبي ﷺ غير القرآن كما ورد في صحاح السنة فإن النبي ﷺ لم يتحدث بها، بل كان التحدي بالقرآن وحده، ولهذا كان القرآن معجزة الرسول التي تزيد رسالته، وتشرق في قلوب الذين اتبعوه من المؤمنين..

ورسالة النبي ﷺ شاملة خالدة لأنها خاتمة الرسالات فكانت الحكمة أن تتفق معجزته من نوع رسالته، إذ كل نبي سبق كان يأتي برسالة لقوم بأعيانهم وتنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمراً حياً يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى انقضى ذلك الأمر المحسوس ولا يراه أحد من بعده، لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة ولا مع خلودها، لقد كان، القرآن معجزة للناس جميعاً، ولذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجزات السابقة، وقد جاء للعالم بعد أن اكتملت المدارك البشرية، وارتقى الفكر الإنساني، لأن رسالة سيدنا محمد ﷺ، وافقت البشرية بعد أن أدركت رشدًا

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥. أنظر مناهل العرفان، ج ٢، ص ٢٣٢.

ونكامل النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزته تدرك (بالعقل) ولا تحتاج إلى أي نوع من الحس. فهي معان خالدة، يدرك سموها الإنساني في كل الأجيال، وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعاً^(١).

معنى إعجاز القرآن:

الإعجاز في اللغة العربية هو: نسبة العجز إلى الغير قال تعالى: ﴿أَعْجَزْتَ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوَاءَ أَخِي﴾^(٢) وتسمى المعجزة (معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، لأنه أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر - مشرقين ومجتمعين - عن الإتيان بمثله. وليس المقصود من (إعجاز القرآن) هو تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بمعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق، وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عنها ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم. وإثبات أن ما جاءوا به إنما هو بوحى من الحكيم العليم، وتنزيل من الإله القادر. وأتهم إنما يبلغون رسالات الله، وليس لهم إلا الأخبار والتبليغ، فالمعجزات إذاً براهن من الله سبحانه إلى عباده، بصدق رسله وأنبياؤه، فكأن الله تعالى - بواسطة هذه المعجزة - يقول: صدق عبدي فيما بلغ عني وأنا أرسلته ليلفكم ذلك، والدليل على صدقه أن أجري على يديه خوارق العادات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثله، ومما ليس بمقدور أحد من الناس أن يجاربه في مثل هذا الأمر العجيب ذلك هو معنى الإعجاز، وذلك هو مفهوم المعجزة.

متى يتحقق الإعجاز:

والإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور ثلاثة نعملها فيما يلي:

أ - الأول: التحدي، أي (طلب المباراة والمعارضة)

(١) أنظر الكتاب والسنة، ص ٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآية ٣١.

ب - الثاني: أن يكون الدافع إلى ردة التحدي قائماً

ج - الثالث: أن يكون المانع منتفياً

ولتوضح هذه الأمور الثلاثة ببعض الأمثلة فنقول:

١ - هذا القرآن العظيم (معجزة محمد الكبرى) الذي تحدى الله به العرب خاصة، والناس أجمعين، يأتي به نبي أمي، لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس في مدرسة. أو يتلق علومه في جامعة من الجامعات الكبيرة، ولم يثبت عنه أنه كان تلقى شيئاً من العلوم والمعارف عن بعض التابعين من العلماء، أو المرزبين في صفوف الثقافة والعرفان. ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حتى يتطلع على أنبياء الأمم السابقين، وأخبار الأنبياء المتقدمين، جاءهم بهذا الكتاب المجيد، متحدياً لهم - وهم أئمة الفصاحة وقرسان البلاغة - وطلب منهم معارضة القرآن، بعبارات قوية. ومجرات واخزة تستفز العزيمة وتدفع إلى المواجهة، وتنزل معهم من التحدي بجميع القرآن، إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة واحدة من مثله. وهم في كل هذا واجون، لا ينسبون بشت شفة، وهم رغم هذا التحدي ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة، أفليس في هذا أكبر شاهد وبرهان على إعجاز القرآن؟

اسلوب القرآن في التحدي:

جاء التحدي في القرآن الكريم بصور متعددة، وأساليب متنوعة، تبرز كيان العرب همزاً، وتحجزهم إلى الميدان جراً، في أسلوب يمنع أخاذ. يملك عليهم شعورهم، ويستحوذ على أقدانهم، بسحره وجماله ورونقه

لقد تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا وولوا الأدبار. مع أنهم قرسان الفصاحة، وملوك البيان.

فستنزل معهم إلى (عشر سور) من مثله مغتربات، فالتقطعوا والدعروا وعجزوا عن الاتيان سلك السور العشر

فتنزل معهم إلى ما هو أسهل وأبسر، إلى الإنبيان بمثل (سورة واحدة) فقط من سور القرآن، فلم يتقدم واحد منهم إلى حلبة الميدان.. وبذلك سجل عليهم القرآن العجز والهزيمة، وثبتت معجزة محمد، النبي الإلهي، على أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(١) وصدق الله حيث يقول:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا * وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢)

أنواع التحدي:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

١ - التحدي العام -

٢ - التحدي الخاص -

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق مما فيهم الفلاسفة، والعابرة، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر بدون استثناء، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم، استمع إلى هذا التحدي الصارخ في سورة الإسراء:

﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(٣)

وأما الثاني: (التحدي الخاص) فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم لكفار قريش، وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضاً:

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٥

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٢

(٣) ظهيراً: أي معيلاً وناصراً سورة الإسراء: الآية ٨٨

ودعواهم الكاذبة حين قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا، إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١).

جاءهم التحدي في سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا - وَلَنْ تَفْعَلُوا - فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢).

قال العلامة (القرطبي) في تفسره (الجامع لأحكام القرآن): قوله ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني فيما مضى، ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي تطبقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهم، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبذع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها (٣).

أما الأمر الثاني وهو: (قيام المقتضي للمباراة والمعارضة) عند العرب فقد كان حاصلًا وقائماً، فإن النبي عليه الصلاة والسلام جاءهم بدين جديد، أبطل فيه دينهم، وسفّه آحلامهم، وسخر من آهنتهم وأصنامهم، وجعلهم أضحوكة بين الناس، ثم دعاهم إلى اتباعه وإلى اعتقاد أنه رسول من عند الله، وقال لهم: إن الحجة على صدقي هذا الكتاب الذي أوحاه الله إلي، فإذا لم تصدقوني في ذلك فأنا اتخذكم أن تأتوا بمثله، أو يمثل سورة منه، وإذا عجزتم فذلك آية صدقي، وبرهان رسالتي إليكم.. فما كان أخرجهم إلى أن يأتوا بمثله خاصة بعد هذا التحدي السافر، والنهكم الشديد اللاذع، بعقوبتهم وآهنتهم وأصنامهم، أقول ما كان أخرجهم إلى دحض ما ادعاه، وإبطال أنه من عند الله، وذلك بسلوك أسير الطرق، ولولوج اقرب الابواب لرد دعواه وذلك عن طريق ما برعوا فيه، واشتهروا بجودته واتقانه الا وهو (البيان) في النطق

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢٣، ٢٤.

(٣) تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٢.

و (الفصاحة) في اللسان، وكان ذلك انفع لهم من الحرب التي ذاقوا ويلاتها، وخاصوا
عمارها، حتى شربوا كؤوس الأسى وتجرعوا الموت الذؤام، ولكنهم اختاروا طعن
الرماح، ووقع النبال، ولم يدخلوا في المباراة.

يقول القاضي (الباقلاني) رحمه الله: (كيف يجوز أن بقدروا على معارضة القرآن،
السهلة عليهم، وذلك بذحض حجتهم، ويفسد دلالاته، ويبطل أمره، فيعدلون عن ذلك
إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المناظرة والمعاداة،
ويتركون الأمر الخفيف؟ هذا ما يمنع وقوعه في العادات ولا يجوز انفاقه من
العقلاء).

وأما الأمر الثالث: وهو (انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن)، فلائذ نزل بلسان
عربي، هو لسانهم، وألفاظه من أحرف العرب، وعباراته على أسلوب العرب، وهم
أهل البيان واللسن، وأمراء الفصاحة والبلاغة، وقد دلت أشعارهم، ونطقت خطبهم
وحكمهم على براعتهم في ذلك، وعلى أنهم حازوا قصب السبق في مضمار الفصاحة
والبيان، كما أثبت الأيام أنهم من ذوي القدرة والاستطاعة على أن يبرزوا في الشعر
والنثر، وأن يخلقوا في سماء الفصحى ألا وهي لغتهم الأساسية (لغة القرآن) التي بها
يتفاخرون ويتبارون، ويعقدون المنتديات، ويجتمعون في المحافل، ليسمعوا أروع
القصائد والخطب، ويصوغوا أجل الالفاظ والعبارات، ولم يكونوا في عجز من
قدرتهم، أو نقص في عقولهم، بل كانت قدرتهم موفورة، واستطاعتهم مشهورة، وهم
أولوا النهي والألباب، ومع ذلك فالقرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاءوا، ويكملوا ما
ينقصهم بأهل الأديان، ويستحضروا عذتهم بالانصال بالحررة والكهان، وبمن شاءوا
من طوائف الإنس والجان، فليس أمامهم ثمة مانع، والنبي ﷺ لم يضرب لهم أجلاً
للمعارضة، ولم يحدد زمناً للمناقضة، حتى يقول قائل منهم: إن الزمن لا يكفي وليس
فيه سعة، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتاجوا بذلك، بل نزل مفرقاً في
ثلاث وعشرين سنة، بين كل مجموعة وأخرى زمن متسع للمعارضة والإتيان بمثله لو
كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا دلّ على أنه تنزيل رب العباد، وكفى بذلك دليلاً
وبرهاناً.

مثل على إعجاز القرآن:

وقد ذكر المرحوم (الشيخ الزرقاني) كلاماً نفيساً في كتابه (مناهل العرفان) ننقله بنصه. قال رحمه الله في بحث تعريف (المعجزة) ما يلي:

(المعجزة: هي أمر خارج للعادة، خارق عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدعي النبوة، عند دعواه إياها: شاهداً على صدقه... فإذا قام إنسان ما، وادعى أنه مبعوث من الله تعالى إلى خلقه، ورسوله إلى عباده، وقال: إن آية صدقي فيما أذعبي، أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي، وأن يخرج الآن عن سنة من سنته العامة في وجوده ثم قال: وسيأتيكم الله بهذا الأمر العجيب، من باب ترون انكم فيه نابغون وعليه قادرون، وإني أخذكُم زرافات ووحداناً أن تأنوا بمثل هذه الآية، وأمامكم الباب مفتوحاً كما تعتقدون، وفيكم النبوغ موفوراً كما تدعون، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي، قال ذلك بلغة الواثق، وتحذانا هذا التحدي الظاهر، في وقت ينور فيه على عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا، ويسقه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من أبائنا، ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفر به، دفاعاً عن كرامتنا وانتصاراً لأعز شيء لدينا، ثم لم يلبث أن قام وقمنا، وأجمع أمره وأجمعنا، وإذا نحن جميعاً بعد محاولات ومحاولات لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتى به، فضلاً عن أعظم منه، مع أننا أمة وهو فرد، ومع أنه قد دخل البنا من أسير الطرق في نظرونا، ومن أشهر فن في زماننا، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته، وأنصفنا كل أنصاف من نفسه!!

هل يشك كل ذي مسكة من عقل، في أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز صادق في رسالته ومحق في دعونه، خصوصاً إذا عرفنا فوق ذلك كله أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الاخلاق، من لدن صباه وطفولته إلى يوم مبعثه ورسالته!.

لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه، لقننا: رجل خذق فناً من الفنون التي لا علم لنا بها، أو تعلم صناعة من الصناعات التي لم نخط بخيرها، أما وقد جاءنا من الناحية التي تشهد لأنفسنا فيها بالتفوق والسبق، فلا يسعنا إلا الإذعان له، والإيمان بما جاء به ما

دعنا منصفين. ولنضرب لك مثلاً: جاء موسى عليه السلام بمعجزته عصاً من الخشب، لا روح فيها ولا حركة، ولا لين ولا رطوبة، ثم ألقاها باسم الذي أرسله، فإذا هي حبة تسعى، بينما الأمة التي تحدّثها بذلك كانت قد تقوّت في السحر وحذّقتها، وضربت فيه بأوفر سهم وأولى نصيب، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد، وهم نابغون في السحر وهو مع نشأته فيهم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السحر، فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه ﴿فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾^(١) ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾^(٢) ﴿والقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾^(٣) ﴿الحق أبلج، ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجها، وقد رأوا رأي العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع السحر الذي عرفوه.

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله، قلل في عيسى بن مريم عليه السلام، وإبرائه الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله، أمام قوم نيفوا في الطبّ أيما نيف، ومهروا فيه أيما مهارة!.

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بينات ومعجزات واضحات، وحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً، بلي براهين ساطعات، كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فم الدنيا إلى يوم الساعة، تنحذى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان، والعلوم والمعارف، وأنباء الغيب وشواهد الحق^(٤).

شروط المعجزة الإلهية:

وللمعجزة شرائط خمسة نبي عليها العلماء، فإن اختلف منها شرط لا تكون معجزة:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٨.

(٣) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٠ - ١٢٢.

(٤) مناهل العرفان ج ١ ص ٦٨.

- ١ - الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين.
- ٢ - الشرط الثاني: أن تخرق العادة وتكون مخالفة للسنة الكونية.
- ٣ - الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدعي الرسالة على صدق دعواه.
- ٤ - الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبي المنحدي بتلك المعجزة.
- ٥ - الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة.

فهذه الشروط الخمسة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى، التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم نتحقق خرجت عن كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحب الدعوى.

أما الشرط الأول: فإنه لو أتى - في زمن يصح فيه مجيء الرسل - وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، وينتحر من مكان إلى مكان لم يكن هذا الذي ادّعاء معجزة، ولا دالاً على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليها البشر كفلق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى... الخ.

وأما الثاني: وهو خرق العادة فلو قال المدعي للنبوة معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، وأن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما ادّعاء معجزة، لأن هذه الأمور وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، لكنها لم تفعل من أجله، وقد كانت من قبله، فليس فيها دلالة على صدقه.

وأما الثالث: وهو أن يستشهد بها مدعي النبوة وتحصل عند طلبها تصديقاً لدعواه، فلو ادّعى إنسان أن معجزته أن ينقلب الجناد إلى حيوان أو إنسان، ولم ينقلب لا يدل على صدق دعواه.

وأما الرابع: وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى لا على خلافه لأنها حينذاك تكون تكذيباً له. روى أن (مسيلة الكذاب) لعنه الله طلب منه أصحابه أن يتفل في بئر ليكثر فيها الماء فقارت البئر فدل على كذبه^(١)

(١) أنظر تفسير القرطبي، ج ١ ص ٧٠.

خامساً: ألا تُعارض المعجزة فإن عورضت بطل كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحبها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر لم نعد معجزة ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(١)

م كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلامُ الله المعجزُ للخلق، في أسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحكمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان، عن وجوه إعجاز القرآن، بعد أن ثبت عندهم بالوجدان والبرهان، وقد أجمع أهل العربية قاطبة، وأهل اللسن منهم والبيان، على أن القرآن (معجز بذاته) أي أن إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابه فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلابة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

مذهب أهل الصرفة:

وقد ذهب بعض المعتزلة منهم (أبو إسحق النظام) إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـ (الصرفة) بمعنى أن الله عز وجل صرف البشر عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها وخلق قبيح العجز عن محاكاته في أنفسهم وألسنتهم، ولولا أن الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله. ولعمري هذا قول من لم يتذوق طعم العربية، ولا عرف أسرارها، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشوراً لا تسمن ولا تغني من جوع، وهو قول ساقط مردول، يخالف لما أجمع عليه العلماء والفصحاء والبلغاء في القدم والحديث

يقول حجة الأدب العربي (مصطفى الرافعي) رحمه الله: (وقد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين (أبو إسحق النظام) إلى أن

(١) سورة الطور، الآية: ٣٤

الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة وقال (المرتضى من الشبهة): بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن.. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرّون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم.. وهذا رأي بين الخلط كما ترى!

ثم قال: وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤَنِّرُ﴾^(١) وهذا زعم رده الله على أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضرباً من الغنى ﴿أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ﴾^(٢)

وعلى ذلك المذهب الفاسد يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم إنما هو (الصرفة) التي بسببها عجزوا عن الاتيان بمثله ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٣). وقد أسف (ابن حزم) الظاهري حين سلك ذلك المسلك الملتوي، وذهب إلى ما ذهب إليه سلفه (النظام) من سُخْفِ الكلام، ولكن بأسلوب رشيق رقيق حيث يقول في كتابه (الفصل) في سبب الإعجاز ما نصه:

(لم يقل أحد إن كلام الله تعالى غير معجز، ولكن لما قاله الله تعالى، وجعله كلاماً له أصاره معجزاً، ومنع من مماثلته، وهذا برهان كافٍ لا يُحتاج إلى غيره)

فأنت ترى صاحب هذا الرأي يجعل القرآن الكريم معجزاً بمنع الله عز وجل من مماثلته وهذا عين رأي النظام الذي بقول بالصرفة، وهو رأي باطل كما أسلفنا، والقوم محجوبون عن ضياء الحق الساطع، وما أجل قول القائل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من زَمَد وينكر الفم طعم الماء من سَقَم

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الطور، الآية: ١٥. انظر، إعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.

آراء العلماء في الإعجاز :

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بذاته ، وعلى عدم استطاعة أحدٍ من البشر الاتيان بمثله ، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء :

أ - يرى بعضهم : أن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم ، في مطالعه ، ومقاطعه ، وقواصله

ب - ويرى البعض الآخر : أن وجه الإعجاز إنما يكمن في فصاحة ألفاظه ، وبلاغة عباراته ، وجودة سبكه ، إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعهد مثلها

ج - ويرى آخرون أن الإعجاز في خلقه من التناقض ، واشتماله على المعاني الدقيقة ، والأمور الغيبية التي ليست بمقدور البشر ، ولا في استطاعتهم معرفتها ، كما أنه سليم من التناقض والتعارض

د - وهناك من يقول : إن وجه الإعجاز هو ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة ، في الفوائد ، والمقاصد ، والخواتيم في كل سورة ، والمعول عليه عندهم ما يلي :

١ - الفصاحة في الألفاظ .

٢ - البلاغة في المعاني

٣ - صورة النظم البديع .

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي (الدائرة البيانية) التي امتاز بها القرآن ، وهي وإن كانت حقاً إلا أن إعجاز القرآن ليس في (الفصاحة والبلاغة) فحسب ، بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن ، وقد أجاد العلامة (القرطبي) رحمه الله في تفسيره القيم المسقى (الجامع لأحكام القرآن) فعند عشرة وجوه لإعجاز القرآن ، كما ذكر فضيلة الشيخ (الزرقاني) في كتابه (مناهل العرفان) أربعة عشر وجهاً من وجوه الإعجاز ، منها ما ذكره القرطبي ومنها ما لم يذكره ، ونحن نذكر هذه

الوجوه بالإيجاز ثم نعقبها بشيء من التفصيل، فنقول ومن الله نستمد العون:

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

أولاً: النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب

ثانياً: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية

ثالثاً: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها

رابعاً: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبرز كل تشريع وضعي

خامساً: الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي

سادساً: عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها

سابعاً: الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعد

ثامناً: العلوم والمعارف التي اشتمل عليها (العلوم الشرعية والعلوم الكونية)

تاسعاً: فوائده بحاجات البشر

عاشراً: تأثيره في قلوب الأنبياء والأعداء

أما الوجه الأول: من وجوه إعجازه فهو (النظم البديع) المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان، (الوليد بن المغيرة) و (عنه بن ربيعة) وغيرهما من قصبياء العرب ومشاهيرهم.

أصله من التاريخ:

١ - يروى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانه رقى له، فبلغ ذلك أبا جهل فأنه فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوه لك، فإني أتيت محمداً لتعرض لما قبله (أي لتتال من فضله) فقال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا، فقال له أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك

منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله خللاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمشر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما بعل عليه. فقال أبو جهل اللعين: والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ فنزل فيه قول الله تعالى ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وحيداً * وجعلتُ له مآلاً ممدوداً...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾^(١)

٢ - ويروى أن (الوليد) لما سمع القرآن من النبي ﷺ تأثر تأثراً بالغاً فجاء لقومه (بني مخزوم) وقال لهم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً (أي سابقاً) كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لخللاوة، وإن عليه لطلاوة... الخ. فقالت قريش: صبا والله الوليد، لتضبان قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعده إليه حزيناً وكلمه بما أغاظه، فقام الوليد وقام معه أبو جهل، فلما أنى قومه قال: نزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخفق؟ ونقولون إنه كاهن فهل رأيتموه ينكهن؟ ونزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ ونزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا... ثم قالوا: فما هو؟ ففكر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله، وبين الوالد وولده، وما الذي يقوله إلا سحر يأتوه (أي ينقله) عن أهل بابل، فارتج النادي فرحاً، وتفرقوا متعجبين بقوله، متعجبين منه فنزلت الآيات الكريمة^(٢)

٣ - وفي صحيح مسلم أن (أنيساً الغفاري) أخا أبي ذر، قال لأبي ذر: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال يقولون: شاعر، ساحر، كاهن، وكان (أنيس) أحد الشعراء قال أنيس: لقد سمعت قول

(١) سورة المدثر، الآيات ١٦ - ٣٥. رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) أنظر الكشاف، ج ٤ ص ٦٤٩.

الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر (يريد أنواعه وبحوره) فلم يلتزم على لسان أحد منهم أنه شعر، والله إنهم لكاذبون وإنه لصادق^(١).

٤ - وأخرج ابن إسحق في السيرة (أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمسنا لنا رجلاً عالماً بالشعر، والكهانة، والسكر، فكلمه ثم أنانا ببيان عن أمره؟ فقال (عتبة بن ربيعة) - ومن من أشرف القوم وسادتهم - أنا أقوم إليه وأكلمه! فأتاه فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فم تسم أهنأ وتضللنا؟ فإن كنت تريد الرئاسة، عقد لك اللواء فكنت رئيساً، وإن كنت تريد النساء وجناك ما نشاء منهن، تختار من أي بنات قريش ما شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا وأكثرنا مالاً، والنبي ﷺ ساكت لا يجيبه، فلما فرغ من عرضه، قال له النبي ﷺ: أقروعت؟ قال: نعم، قال فاسمع إذا فتلا عليه سورة فصلت ﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فاعرضوا أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ الخ حتى بلغ قوله تعالى ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرناكم صاعقة﴾^(٢) الآية فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة إلا قد صبأ! فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة: ما حبك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب ثم قال لهم: والله لقد كلمته فأجابني بشي، والله ما هو بشعر، ولا بحر، ولا بكهانة، وقد ناشدته بالرحم أن يكف خشية أن ينزل بكم العذاب، وقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب...^(٣)

قال العلامة (القرطبي) رحمه الله

(وإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه

(١) أنظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٣.

(٢) سورة فصلت، الآيات ١-١٣.

(٣) أنظر الكشف، ج ٤، ص ١٩٢.

ما سمع مثل القرآن قط، كان في هذا القول، مقراً بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه)

أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن: فهو (الأسلوب العجيب) المخالف لجميع الأساليب العربية. فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاب، الذي بهر العرب برونقه وجماله، وعذوبته وحلاوته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا ما لم توجد في كلام بشر على نحو ما وجدت في القرآن، خصوصاً وأن النبي ﷺ تحدى به فأعجز أساطين الفصحاء. وأعيان مقاولي البلغاء، وأخرى ألسنة فحول البيان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجابة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية

يقول (الزرقاني) رحمه الله: (وها قد مرت على اللغة العربية، من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوار مختلفة بين علو ونزول، واتساع وانقباض، وحركة وجود، وحضارة وبداءة، والقرآن في كل هذه الأدوار، واقف في عليائه، بطل على الجميع من سمائه. وهو يشع نوراً وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرف جدة وطلاوة، ولا يزال كما كان غصاً طرياً، يحمل راية الإعجاز، ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصورته ﴿قُلْ لِّسْنُ اجْتِمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١)).

خصائص أسلوب القرآن:

وللقرآن الكريم في أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية خصائص عديدة نجملها فيما يلي:

الخاصة الأولى: مسحة القرآن اللفظية، التي تنجلي في نظامه الصوتي، وجماله

اللغوي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨. أنظر مناهل العرفان ج ٢، ص ٢٢٩.

الخاصة الثانية: إرضاء العامة والخاصة، بمعنى أن الجميع يحسون بجلاله ويشعرون بروعته

الخاصة الثالثة: إرضاء العقل والعاطفة معاً فالقرآن يخاطب العقل والقلب، ويجمع الحق والجمال معاً

الخاصة الرابعة: جودة سبك القرآن وإحكام سرده، فكأنه سبيكة واحدة تلعب بالعقول وتأخذ بالأبصار

الخاصة الخامسة: براعته في نصريف القول، وتغنّته في صروب الكلام، بمعنى أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ شتى، وطرق مختلفة، وكلها رائعة فائقة

الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان

الخاصة السابعة: الوفاء بالمعنى مع القصد في اللفظ^(١).

أمثلة توضيحية على خصائص أسلوب القرآن:

يقول حجة الأدب العربي الفقيّد (مصطفى الرافعي) رحمه الله:

١ - (لو تديرَت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية، تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، ولن تجدها إلا مؤنلفة مع أصوات الحروف مُساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربّما كانت ثقبلة، فلا تعذّب ولا تُساع فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا.. من ذلك لفظة (النذر) جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جساءة هذا الحرف، ونبوءة في اللسان، ولكنه جاء في القرآن على العكس في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَارَوْا بِالنُّذُورِ﴾^(٢) فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتدوّق مواقع الحروف، وأجر حركاتها في حسن

(١) أنظر: مناهل العرفان للزرقاني.

(٢) سورة القمر، الآية: ٣٦.

السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشنا) وفي الفتحات المتوالية فيها وراء الطاء إلى الواو من قوله (بطشنا فتَمَارَوْا) مع الفصل بالمد ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الاحماض في الأطعمة.

٢ - وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه ، وما حست في كلام قط الا في موقعها فيه ، وهي كلمة (ضيرى) من قوله تعالى ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ ومع ذلك فإن حُسْنها في نظم الكلام من أغرب الحُسْن ومن أعجبه ، ولو أردت اللغة العربية ما صلح لهذا الموضع غيرها ، فإن السورة التي هي منها وهي سورة (النجم) مفصلة كلها على الباء ، فجاءت الكلمة فاصلة من القواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت في ذكر الاصنام ، وزعمهم في قسمة الاولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والاصنام بنات لله ، مع وأدهم للبنات فقال تعالى ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ * تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿^(١) فكانت غرابية للفظه أشد الاشياء ملائمة لغرابية هذه القسمة التي انكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها ، الإنكار في الأولى ، والتهكم في الاخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ..

٣ - ومما لا يسهه طوق انسان في نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على ان نظم القرآن مادة فوق الصنعة ، ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صباً ، انك ترى بعض الالفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج الى هذه الصيغة استعمل مرادفها ، كلفظة (اللَّب) فإنها لم ترد إلا بمجموعة كقوله تعالى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ^(٢) وقوله ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَبَاءَ﴾ ^(٣) ونحوهما ولم ترد فيه مفردة ، بل جاء مكانها (القلب) في قوله تعالى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ

(١) سورة النجم - الآيتان ، ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ، ٢١ .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية ، ٥٢ .

كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ^(١) وذلك لان لفظ (الباء) شديد مجتمع، ولا يُفصي الى هذه الشدة الا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم تحسن اللفظة اسقطها من نظمه بتهـ..

وكذلك لفظ (الكوب) استعملت فيه مجموعة، ولم يأت بها مفردة، لأنه لا ينهيا فيها ما يجعلها في النطق - من الظهور والرقّة والانكشاف وحسن التناسب - كللفظ (أكواب) الذي هو الجمع، و (الارجاء) لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً، وترك المفرد وهو الرجا: اي الجانب لعله لفظه، وانه لا يسوغ في نظمه كما ترى..

وعكس ذلك اللفظة (الأرض) فإنها لم ترد فيه الا مفردة، ولم يرد في القرآن صيغة الجمع (أرضين) ولما احتاج الى جمعها اخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة، وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾^(٢) ولم يقل (وسبع أرضين) لهذه الجسأة التي تدخل للفظ، ويختل بها النظم اختلالاً...

٤ - ونأمل قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ، وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ، وَالضَّفَادِعَ، وَالدَّمَ، آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾^(٣) فإنها خمسة اسماء، أخفها في اللفظ (الطوفان، والجراد، والدّم) وأنقلها (القمل والضفادع) فقدم (الطوفان) لمكان المذنب فيها، حتى يأنس اللسان بجفتها، ثم (الجراد) وفيها كذلك مدة، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفها في اللسان، وابعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه، ثم جيء بلفظة (الدّم) آخرأ، وهي اخف الخمسة وأقلها حروفاً، ليسرع اللسان فيها، ويستقيم لها ذوق النظم، ويتم بها هذا الاعجاز في التركيب، وانت فمهما قلبت هذه الاسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة الا في هذا الوضع، فلو قدمت او آخرت لبادرك

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.

التهافت والتعثر، ولأعنتك ان تحيي منها بلفظ، او نظم فصيح..

من ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعاً انسابياً البتة، ولو كان من وضع انسان جاء على طيقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب، او من جاء بعدهم الى هذا العهد ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١) ولقد أحس العرب بهذا المعنى، واستيقنته بلغاؤهم، ولولاه ما افحموا، ولا انقطعوا من دونه، لأنهم رأوا جنساً من الكلام غير ما توديه طباعهم، وكيف هم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة^(٢)؟! ..

ويقول المرحوم فضيلة الشيخ (الزرقاني) في موضوع خصائص أسلوب القرآن:

(للقرآن مسحة خلاصة عجيبة، تنجلي في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي.. ونريد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن واثلافة في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، وانصالاته وسكناته، اتساقاً عجيبةً، واثلافاً رائعاً، يسترعي الاسماع ويستهيوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومثثور..

ونريد بجمال القرآن اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي الى قمة الاعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس، لاعتل مذاقه في افواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه، ومن عجب أمر هذا الجمال اللغوي، وذلك النظام الصوتي، انها كما كانا دليل اعجاز من ناحية، كانا سوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك ان من شأن الجمال اللغوي، والنظام الصوتي، ان يسترعي الاسماع، ويشير الانتباه، ويجرك داعية الإقبال في كل إنسان، إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويُعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجزؤ احد على تغييره وتبديله، مصداقاً لقوله سبحانه:

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٦١.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١) ..

ومن خصائص اسلوب القرآن العظيم انه يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه وهو في معمعان إقامة الدليل العقلي على البعث والنشور في مواجهة المنكرين المكذبين، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة امتعاً، بما جاء في طي هذه الادلة المسكتة المقنعة، إذ قال سبحانه في سورة (فصلت) :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْك تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) . واسمع إليه في سورة (ق) إذ يقول :

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾^(٣) ..

تأمل هذا الاسلوب البارع، الذي اقنع العقل، وامتع العاطفة في آن واحد، حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل، إذ قال في الآية الأولى ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وفي الآيات الأخيرة قال ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي الخروج من القبور، والبعث والنشور ..

يا للجمال الساحر، وبيا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الانسان وقلبه معاً، بأنصع الأدلة، واجمل البيان، في هذه الكلمات المعدودات !!

ثم أنظر الى القرآن وهو يسوق قصة (يوسف) مثلاً، كيف يأتي في خلالها بالعظات

(١) سورة الحجر، الآية ٩ - أنظر: جنايل العرفان، ج ٣، ص ٢٠٨.

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٩.

(٣) سورة ق، الآيات ٩ - ١١.

البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام، بالعفاف، والشرف، والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة:

﴿وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ بَيْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ، وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ، قَالَ مُعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَاقِبِي، إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورية من القصص المتعبدات جداً (جند الرحمن) و (جند الشيطان) ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان!! وهكذا تجد القرآن كله مزيجاً حلواً سائغاً، يتخفف على النفوس أن تجزع الأدلة العقلية، ويسرفه عن العقول باللفسات العاطفية، فهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا، ثم لا، فكلام البشر إن وفي بحق العقل، يخس العاطفة حقها، وإن وفي بحق العاطفة يخس العقل حقه، حتى لقد باتت العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى قسمين، لا ثالث لهما (أسلوب علمي) و (أسلوب أدبي) فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم، وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الخفاء والعري، ما لا يهز القلوب ويحرك النفوس، وتجد في كلام الأدباء والشعراء، من الخيال والعقم العلمي ما لا يغذي الأفكار ويقنع العقول، أما القرآن فقد انفرد بهذه المزية بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

٣ - الوجه الثالث من وجوه الإعجاز، ذلك الإعجاز الرائع، والجزالة^(٣) المخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر أن يحيط بها، أو يأتي بمثلها لأنها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الانسانية. لقد كان البدوي، راعي الغنم، يسمع القرآن فيخر ساجداً لله رب العالمين، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من أولئك الرعاة الجفاة.

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٤. أنظر متاعل العرفان، ص ٢١٠.

(٣) المراد بالجزالة: الفخامة في الألفاظ، والإجادة في التعبير مع قوة الخيال وعدم التعقيد.

قصة الجارية والأصمعي ..

يروى أن (الأصمعي) خرج ذات يوم فلقى جارية خنسية أو سداسية، وسمعها تنشد أبياتاً من الشعر رائعة، فأعجب بذلك الأبيات وهزت منه النفس والقلب، بجمال أسلوبها، وروعة بيانها، وفصاحة الفاظها، فقال لها: قانتلك الله ما أفصحك؟ فقالت له: ويحك أو بعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ، فإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ، وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين^(٢).. الخ. قال الأصمعي فأعجبت بفهمها وإدراكها أكثر مما أعجبت بشعرها، فهي جارية بدوية صغيرة السن ولكنها واسعة العلم والفهم، أما الأبيات التي كانت تنشدها فهي قولها:..

(أستغفر الله لذنبي كلّه قبلت إناناً بغير حقّه)
(مثل الغزال ناعماً في دله وانتصف الليل ولم أصلّه)

وقد أشارت هذه الجارية على الأصمعي بروعة ما في القرآن من بلاغة وفصاحة، وإيجاز وإعجاز، فالآية الكريمة جمعت بين أمرين وهما (أرضعيه) و (ألقيه في اليم) ونهيين وهما (لا تخافي) و (لا تحزني) وخبرين وهما (أوحينا) و (خفت) وبشارتين وهما (إنا رادوه إليك) و (جاعلوه من المرسلين) فالبشارة الأولى برده إليها سليماً كريماً، والبشارة الثانية وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولاً هادياً. فانظر - رعاك الله - كيف أدركت هذه الجارية البدوية، بقطرتها العربية، سرّاً من أسرار هذا الإيجاز والاعجاز، وانتهت الى ما لم يدركه هو من أسرار هذا القرآن، فكان الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان، فكانت لآلها بميزان..

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) القصة ذكرها القرطبي في تفسيره الجزء الثالث عشر ص ٢٥٢، وذكرها صاحب المنار في الجزء الأول ص ٢٨ والمراد بقوله (خنسية أو سداسية) أي طولها خمسة أو ستة أشبار. أي أنها معتدلة القامة.

ب - ويرى أن (ابن المقفع) الكاتب البليغ المشهور، حاول أن يعارض القرآن ذات مرة، فسمع صبياً يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي، وَغِيضَ الْمَاءِ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١) فكثر الأقلام، ومزق الصحف التي كان قد بدأ بها في المعارضة وقال: هذا والله مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، فمزق ما جمع واستحيا على نفسه من إظهاره..

وهكذا رجع الأديب الكبير البليغ عن عزمه، بعد أن حدثته نفسه بمعارضة بعض سورة لأنه شعر بروعة القرآن..

ثم انظر الى الجزالة والابحاز في أسلوب القرآن، وقارنها بأروع أسلوب نطق به عربي، وهو أسلوب افصح من نطق بالضاد، سيد المرسلين محمد بن عبد الله، الذي شهد ببلاغته وفصاحته اعداؤه قبل أنصاره، قارن بين (القرآن والسنة النبوية) تجد الفرق شاسعاً، والبون بعيداً، كفرق ما بين السماء والأرض، فبلاغة القرآن وتضارته واشراقته في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الابحاز والبيان، تأمل قوله ﷺ في صفة الجنة وما فيها من نعم وخلود:

« فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر... » الحديث، وقارن بين هذه الألفاظ على روعتها وبين قوله تعالى في وصف نعم أهل الجنة:

﴿ وفيها ما تشبه الأنفس، وتلذ الأعين... ﴾^(٢) الآية. وقوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾^(٣) فهذا أعدل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأجزل عبارة، وأقل حروفاً.!!

ووازن بين قوله ﷺ « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الرجل راع في بيته

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧٩.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

ومسؤول عن رعبته الحديث. وبين قوله تعالى ﴿قَوْلَ رَبِّكَ لِنَاسِهِمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) وقوله ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢) وكذلك قارن بين سائر أقواله ﷺ وبين القرآن الكريم نجد أن كلام الرسول على بلاغته لا يخرج عن كونه كلام بشر في الذروة العليا من الكلام، أما كلام الله تعالى فلا يشبهه كلام لأنه كلام خالق البشر، انظر إليه وهو يتحدث في جزء آية من آياته المجيدة عن أحوال الأمم السابقين، ومآل الجاحدين المكذبين، وما حل بهم من كوارث ونكبات، نتيجة لطغيانهم وتمردهم، ثم كيف انتقم الله منهم جميعاً بعد أن جاوزوا الحد في الطغيان، فلم ينج منهم إنسان يقول حلّ نأؤه..

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣)..

يقول القرطبي رحمه الله نقلاً عن (ابن الحصار): وهذه الثلاثة أوجه من (النظم، والاسلوب، والجزالة) لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة (الكوثر) ثلاث آيات قصار، وهي أقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن معنيين..

أحدهما: الإخبار عن الكوثر (نهر في الجنة) وعظمه وسعته وكثرة أوابه، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل..

والثاني: الإخبار عن (الوليد بن المغيرة) وكان عند نزول الآية ذا مال وولد، ثم

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٢، ٩٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

أهلك الله سبحانه ماله وولده^(١)، وانقطع نسله^(٢) .. انتهى .

٤ - التشريع الإلهي الكامل :

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل، الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر، في القديم والحديث، فالقرآن الكريم هو الذي وضع أصول العقائد، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي، والسياسي، والمدني، والاجتماعي، وهو الذي نظم حياة الأسرة، والمجتمع، ووضع أعدل المبادئ الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا وهي (المساواة، الحرية، العدالة التي يسمونها (الديمقراطية) الشوري) الى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع، الذي نسمي اليه المدنية الحديثة. ففي العقائد دعا القرآن الى عقيدة طاهرة سامية، واضحة جلية، عمادها الايمان بالله عز وجل والتصديق بجميع انبيائه ورسله، والايمان بجميع الكتب السماوية مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا تَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾^(٣). ودعا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الى كلمة سواء، لا انحراف فيها ولا تنواء قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٤).

(١) معنى الأيتام الذي لا ولد له ولا نسل، والشاتي. معناه: المنقطع، وقد قال الزنجشيري أنها تزلت في (العاص بن وائل).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١، ص ٧٤.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

وفي العبادات جاء القرآن العظيم بأسس العبادات ودعائهما، فشرع الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وسائر أعمال البر والطاعة، وليست (العبادة) في الاسلام قاصرة على هذه الدعائم والأركان، بل هي تشمل كل عمل خير، وفعل برّ او طاعة، ولهذا فإن العلماء قرروا أن كل عمل يقصد به الإنسان وجه الله يكون عبادة، وقالوا (إن النية الصالحة تغلب العادة الى عبادة) فإذا عمل الإنسان واحترف له صنعة بقصد التعفف عن الحرام والإنفاق على أهله وعياله، وإذا اكل أو شرب بقصد التقوي على طاعة الله كان عمله عبادة يثاب عليها، والاصل في هذا قول النبي الكريم «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى اللقمة تضعها في في امرأتك» الحديث^(١). وقوله ﷺ «وَلِي بَضْعُ أَحَدِكُمْ صَدَقَةً، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَنَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي حَلَالٍ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(٢) وإذا امعنا النظر في اصول العبادات المفروضة نجد ان الإسلام قد وسعها ونوعها، وجعلها ضرورياً متفاوتة، فمنها ما هو (عبادة مالية) كالزكاة والصدقات، ومنها ما هو (عبادة بدنية) كالصلاة والصيام، ومنها ما هو يجمع بين الأمرين (عبادة مالية وبدنية) كالجهاد في سبيل الله يكون بالمال والنفس وهذا التنوع له مغزاه وحكمته السامية وذلك لثلاث تآلف النفس شيئاً فتصبح لها عادة او عَمَلٌ وتضجر من العبادة الواحدة. وفي مجال (التشريع العام) نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني، والجنائي، والسياسي، والاقتصادي، ووضع أسساً للتعامل الدولي في حالة السلم والحرب، على اكمل وجه واعدل نظام، ففي أمر المعاملات حرّم القرآن اكل اموال الناس بالباطل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾^(٣)

(١) الحديث من رواية البخاري في قصة (سعد بن أبي وقاص) حين دخل الرسول ﷺ بيوره من وجع اشتد به.

(٢) الحديث من رواية مسلم، وهو في باب كثرة طرق الخير وأوله: أَنْ نَاسًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْيِ بِالْأَمْوَالِ.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.

الآية، ودعا الى الإشهاد عند إبرام البيع ويكتابة الدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِذَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ (١) الآية. وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود، وأوجب على الأمة تنفيذها، من أجل حماية المجتمع وصيانته من الفوضى والاضطراب وتأمين الأمة على حياتها ومستقبلها، وأموالها وأعراضها لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن نكون إلا عن طريق (الأمن والاستقرار) ..

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم، وأعظمها خطراً على مستقبل الفرد والمجاعة، ووضع لكل منها عقوبات مقدرة لا يجوز الزيادة عليها او النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم، ينفذ فيها ما يراه من العقوبة، على ضوء السنة النبوية المطهرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من المفسد والمظالم الاجتماعية، أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خسة: (جريمة القتل، جريمة الزنى، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقتل) ..

ولعلّ أروع مثلٍ للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) وبين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنع البشر ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفسد والأمراض الاجتماعية، حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، فملكوا الدنيا وسادوا العالم ..

أمثلة من واقع الحياة ..

ومن الأمثلة على تفوق ذلك التشريع القرآني الحكيم، على بقية الشاريع البشرية

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

والنظم الارضية ما نلّمه في واقع الحياة، ويمكن ان نشير إشارة خاطفة الى سمو الشريعة الإسلامية على بقية النظم فيما يلي .:

١ - منذ زمن قريب حرّمت (أمريكا) الخمر، ولكنها فشلت ولم تنجح لأنها لم توفق الى الطريقة الحكيمة التي اتبعتها الإسلام في تحريم الخمر، فعادت الى إباحته مع اعتقادها بضرورة الفادح .

٢ - أباحت بعض الدول الغربية وخاصة (أمريكا) الطلاق بعد ان كان ممنوعاً لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارة، ولا تزال تأخذ بشريع الطلاق .

٣ - مصلحو أوربا يرفعون اصواتهم بضرورة السماح (بتمدد الزوجات) حتى بعض نسائهم طالبن بذلك نتيجة لكثرة العوانس من النساء، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهمية خطيرة على المجتمع الاوربي .

٤ - الخيانات الزوجية انتشرت في المجتمع الاوربي (المتمدّن) بشكل فظيع، وبصورة مذهلة حتى أصبحت الاسر مهددة بانفصام عراها، وكثر فيها اللقطاء وذلك بسبب السفور والتبرج والاختلاط بين الجنسين .

٥ - إسبانيا أصدرت حكومتها قراراً وسنت قانوناً بمنع البغاء الرسمي في بلادها، ومنع النساء من البروز على الشواطيء في ثياب الاستحمام .

٦ - زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها امام الألمان في الحرب الأخيرة بقول: إن سب انبياء دولة فرنسا وسب هزيمتها وانكارها هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفانن .

٧ - وأخيراً نجد ان الجرائم تزداد في كل يوم في المجتمع المتمدّن (المجتمع العربي) مع صراحة العقوبات المشروعة، عندهم بالحبس والسجن السنوات الطوال، او الإعدام بالشنق، ومع ذلك نجد الجرائم المروعة من خطف للفتيات والفتيان، وإزهاق للأرواح، وسرقة - في وضوح النهار - للبيوت والبنوك والمحلات الكبيرة حتى لقد أصبحنا نسمع عن وجود عصابات خطيرة، تهدد امن البلاد وسلامة العباد، وذلك من

أعظم البراهين على فشل النظم الوضعية، والتشريعات البشرية، أما الاسلام فقد حقق الامن والسلام، وقضى على الجريمة في مهدها ولقد أحسن من قال:

(أينما نظمت عقول ضعاف من نظام المهيمن الدبان)
(إيه عصر العشرين ظنوك عصراً نبر الوجه معبد الانان)
(لست نوراً بل انت نار وظلم مُدْ جعلت الإنسان كالحيوان)

ذلك هو الفرق بين تشريع الرحمن، وتشريع الإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(١).

٥ - الإخبار عن المغيبات:

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيبات) وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، إنما هو كلام علام الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية، ولو كان من صنع محمد - كما زعموا - لظهرت علامت الوضع في تلك الأخبار الغيبية، بوقوعها على خلاف ما أخبر ولافتضح امره بالكذب الصريح، وحاشاه ﷺ من الكذب على الله..

أ - فمن هذه الاخبار الغيبية، إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم بعد أن انكسروا في الحرب السابقة وذلك في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ * عَلِمْتَ * الرُّومَ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ * وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ * سَاعِيُونَ *
فِي بَضْعِ سِنِينَ، * لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ * وَمِنْ بَعْدِ * وَيَوْمَئِذٍ * يَقْرَأُ * الْمُؤْمِنُونَ * بِنُصْرَةِ
اللَّهِ، * يَنْصُرُونَ * نِشَاءً * وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

يذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان حرباً وقعت بين دولة الروم وهي

(١) أنظر كتاب مناهل العرفان للزرقاني.

(٢) سورة الروم، الآيات: ١ - ٥.

(مسبجة) ودولة الفرس وهي (وثنية) فانتصر الفرس على الروم، ففرح المشركون وشمتموا وقالوا للمسلمين: تزعمون انكم أهل كتاب وأن النصارى أهل كتاب، وها قد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فاعتم المسلمون وحزنوا لانهزام الروم وهم دولة متدبنة، أمام دولة الفرس وهم وثنيون، فنزلت الآية الكريمة نبشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس في مدة وجيزة تتراوح بين الثلاث والسبع من السنين (في بضع سنين) ولم يكن مطلقاً وقت تلك البشارة أن الروم تنتصر على الفرس، لأن الحروب الطاحنة انتهكتها حتى غزيت في عقر دارها، ولأن دولة الفرس كانت قوية منبعة، وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة. فلما نزلت الآية الكريمة راهن أبو بكر بعض المشركين وهو (أبي بن خلف) على مائة ناقة إلى تسع سنين، ولم تمض المدة حتى وقعت الحرب بين الروم والفرس، فانتصر فيها الروم وانتهزت الفرس وتحققت نبوءة القرآن وذلك - ٦٢٢ - ميلادية الموافقة للسنة الثانية من الهجرة النبوية، وكسب أبو بكر الرهان فأمره ﷺ بالتصدق به..

وفي الآية نبوءة أخرى وهي ان المسلمين سلفرحون ينتصر قريب، في الوقت الذي ينتصر فيه الروم ﴿وبومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله﴾. ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك، فكان ظفر المسلمين في بدر واقعاً في الظرف الذي انتصر فيه الروم، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد بفضل الله..

يقول الزمخشري: (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله، لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله)^(١).

ب - التنبؤ بدخول الرسول وأصحابه مكة آمنين مطمئنين.. روي ان النبي ﷺ رأى رؤيا في منامه وذلك قبل خروجه الى الحديبية، رأى كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسبوا انهم داخلوها من عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ

(١) انظر الكشف، ج ٤ ص ٣٤٥ في سب نزول الآية الكريمة.

حق، فلما كان صلح الحديبية خرجوا من المدينة محرمين يسوقون الهدى إلى مكة لا يقصدون حرباً، وإنما يقصدون العمرة والنسك، ولكن قريشاً صدّتهم، وكادت تقع الحرب بين المسلمين والمشركين لولا أن الرسول ﷺ رضي معهم بالصلح إثارة منه للسلام وحياً للعام، وكان من شروط ذلك الصلح أن يرجع الرسول ومن معه من ذلك العام على أن يدخلوا مكة في العام القابل، واتخذ المنافقون ضعفاء الإيمان من ذلك سبيلاً إلى الطعن والدسّ واللمز، حتى قال رئيس المنافقين (عبد الله بن أبي): والله ما حلقتنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، ولكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة وهي: دخول مكة، وأداء النسك، والأمن من قريش، على رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود، وتقطيعهم الأرحام، وقد انجز الله وعده فتم الأمر ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ، لَا يَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾^(١).

ج - تنبؤ القرآن بانتهاء المشركين قبل وقوع الحرب وذلك في قوله تعالى في سورة القمر:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ﴾^(٢) وسورة القمر مكية، والجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية من الهجرة، فأين هي إذاً فكرة الحرب، ومن الذي كان يحول بخاطرهم أن يهزم جمع المشركين، ويتنصر عليهم المسلمون وهم قلة في العدد والعدد؟ ولكنه وعد الله لا يخلف..

روي عن عكرمة أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

(٢) سورة القمر، الآيات: ١٤ - ١٦.

قال عمر بن الخطاب: أي جمع هذا الذي سُبِّهَ ٩ فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله ﷺ وهو يشب في الدرع ويقول (سيهزم الجمعُ ويولِّونَ الدُّبُرَ) فعرف عمر تأويلها^(١). وروى عن ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين..

د - تنبؤ القرآن بذلك المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش، وذلك في قوله تعالى في سورة الدخان:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾^(٢)..

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة أن أهل مكة لما كذبوا رسول الله ﷺ واستعصوا وتمردوا عليه، دعا عليهم فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسب يوسف، فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والمبينة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان، فأتاه (أبو سفيان) فقال: يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادعوا الله لهم فأنزل الله هذه الآيات الكريمة»^(٣)..

قال الزرقاني رحمه الله: وفي هذه الآيات عند التأمل خمسة تنبؤات:

أولها: الإخبار بما يغشاهم من القحط والجوع حتى يرى الرجل بينه وبين السماء كهيئة الدخان..

الثاني: الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الازمة..

(١) أنظر الكشف، ص ١١٠، الجزء الرابع.

(٢) سورة الدخان، الآيات ١٠-١٦.

(٣) الحديث من رواية البخاري ومسلم.

الثالث : الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً ..

الرابع : الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوهم ..

الخامس : الإخبار بأن الله سينقم منهم يوم البطشة وهو يوم بدر . ثم قال : ولقد حقق الله ذلك كله ما انحرم منه ولا نبوءة واحدة ، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهية الدخان من شدة جوعه وجهده ، ثم قالوا منزعجين ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ، ثم كشف الله عنهم العذاب قليلاً ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم ، فانتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأنسر سبعون وأدبل للمسلمين منهم . أرايت ذلك كله هل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق ؟ كلاً بل هو الله العزيز الحكيم ^(١) ..

هـ - النبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ^(٢) ..

وكذلك النبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ^(٣) .. الآية ..

وقد تحقق هذا الوعد الإلهي فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان ، ومكّن للمسلمين في الأرض في حياة النبي ﷺ حتى استولوا على جميع البلاد العربية ، ولم يبق جزء منها إلا دان للمسلمين بالطاعة ومن لم يدخل في الإسلام دخل في ذمة المسلمين ، وخضع لسلطانهم ، ودفع الجزية لهم ، ثم سار أصحابه من بعده إلى أرض كسرى

(١) أنظر متاعل العرفان ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٣ .

(٣) سورة النور ، الآية ٥٥ . أنظر : الكشف للزمخشري ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

وأرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، ودولة الرومان، ولم يمض قرن من الزمان حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب الى تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولاً ..

وكل هذه - وأمثالها في القرآن كثير - أخبار عن المستقبل وقد تحققت جميعها، وهذا أمر خارق للعادة فكان وجهاً من وجوه الإعجاز لأن مثله لا يتفق إلا بأخبار من عند الله جلّ وعلا. ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء في القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها، ولهذا ذكر الله جلّ ثناؤه قصة نوح ثم أعقبها بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ..

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١) ..

وما أروع قصص القرآن الذي نزل على خاتم المرسلين، ليكون تبييناً لقلبه وذكرى للمؤمنين! وذلك أعظم برهان على أنه تنزيل رب العالمين، فيا لها من حكمة سامية، ومعجزة باهرة!!

سادساً: عدم التعارض مع العلم الحديث: ..

ومن وجوه إعجاز القرآن تلك الإشارات الدقيقة، إلى بعض العلوم الكونية، التي سبق إليها القرآن قبل أن يكتشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جلّ شأنه: ..

﴿سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟﴾^(٢) ..

(١) سورة هود، الآية ٥٩.

(٢) سورة فصلت، الآية ٥٣.

ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة أو فيزياء، وإنما هو كتاب (هداية وإرشاد) وكتاب (تشريع وإصلاح) ولكن مع ذلك لم تحل آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفية، إلى بعض المسائل الطبيعية، والطبية، والجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله، فمن المقطوع به أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأنه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة، حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا مدارس تُقرأ فيها العلوم الكونية، لأن قومه وعشيرته كانوا (أميين) ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، ولم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمد - كما يزعم بعض المستشرقين - إنما هو وحى من الله، أنزله على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي متين. ولقد أجاد الاستاذ (عفيف طبارة) في كتابه (روح الدين الإسلامي) فذكر بعض هذه الحقائق العلمية الدقيقة، ونحن ننقل بعضها بشيء من الإيجاز مع التصرف.